اللغة والأدب-مجلة علمية محكّمة
ISSN: 1111-1143 EISSN: 2602-5202
العدد:34 ؛ المجلد:19.؛ الشهر12 السنة:2022

Language and Literature
A peer-reviewed Scientific journal
Issued by
the Departement of Arabic Language
and Literature

اللغة والأدب

I.S.S.N: 1111-1143
E.I.S.S.N: 2602-5205

اللغة والأدب
مجلة علمية محكّمة
يصدرها
قسم اللغة العربية
وآدابها

خلوة الجبل ؛ التأمّل والبحث عن الذّات في "هكذا تكلَّم زاردشت" لفريديريك نيتشه.

The Solitude of the Mountain; Meditation and self-searching in "Thus Spoke Zarathustra" by Friedrich Nietzsche.

سليم حيولة. جامعة المدية

المؤلف المرسل(باللغتين): الاسم الكامل:	الإيميل:
سليم حيولة Salim Haioula	haioula@yahoo.fr

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:
2020-02-14	2021-09-24

تتناول هذه الدّراسة أحدَ أهمّ المواضيع في الفكر الغربي المعاصر، من خلال تقديم قراءة لمؤلَّف فكري موسوم بـ**"هكذا تكلّم زرادشت"** للفيلسوف الألماني فريديريك نيتشه، وهو كتاب مؤلّف في شكل أدبيّ، ومن خلال قصّته يحاول الإشارة إلى قضايا فكرية وحضارية، ويعدُّ "نيتشه" من بين أهمّ المفكّرين والفلاسفة الأوروبيين الذين أثّروا في الفكر العالمي المعاصر، من خلال نقده للتّيارات الفلسفية الأوروبية، حيث استشعر الأزمات الكبيرة التي عاشتها الحضارة الأوروبية؛ مشكلات اقتصادية وحروب وصراعات بين الشّعوب والمجتمعات والثّقافات المحلّية، وتصاعد الشّعور بالاغتراب، الأمر الذي جعلَ أيضا الكثير من المفكّرين يُشيرون إلى أنّ الحضارة الغربية تعيش وضعا متأزّما، ومن ثمّ اقترحوا حلولا لتحقيق واقع أفضل.

ونصّ**"هكذا تكلّم زرادشت"** الذي كتبه نهاية القرن التّاسع عشر، اختار بطله شخصية **"زرادشت"** مقدّما أفكاره على لسانه، وجعلَه يصعد قمة جبل للاعتكاف بهدف التّأمل والتّفكير في واقع البشرية، محاولا استلهام الحكمة التي تساعده على الخلاص من الأزمة الحضارية والفكرية والرّوحية، وقدّم خلاصة هذه الحكمة القائمة على **"طرح الموروث السّابق"**، و**"موت الإله"** و**"محاولة القضاء على القيم والدّين"**، و**"إنشاء الإنسان المتفوّق (أو الأسمى، والأرقى)"** كما يُسمّيه، إنّ الأفكار التي جاء بها **"زرادشت"** كانت نتيجة من نتائج عزلته الطّويلة على قمّة جبل، وهي العزلة التّي مكّنته من التّفكير في قيم جديدة أراد إحلالها مكان القيم القديمة التي رأى أنها بَليت ولم تعد صالحة. ويُعتبر **"فريديريك نيتشه"** من بين المفكّرين الأوروبيين الذين ساهموا في إحداث تحوّلات كبرى في الفكر المعاصر، وفي المجتمعات الأوروبية والغربية عموما، من خلال محاولته بناء منظومة فكرية-اجتماعية واعتقادية جديدة.

Abstract

This study deals with one of the most important themes in contemporary Western thought, by make a reading of a book , "Thus Zarathustra spoke" by Friedrich Nietzsche, a book written in literary form. As concedering among the most important European philosophers who influenced contemporary world thought, by breaking it with previous philosophical currents, this thinker sensed the great crises in European civilization; economic problems, wars and conflicts, communities and cultures. The growing of sense of alienation has led many thinkers to show that Western civilization is in a crisis and it is imperative to propose solution to this problem and suggest a better life.

The author of " Thus Zarathustra spoke " wroten between 1883 and 1885, his author choses Zarathustra to explain his ideas , He make him rise to the top of a mountain in order to think about humans , trying to inspire the wisdom that helps them to escape their cultural, intellectual and spiritual crises. The most important idea of this wisdom is based on the "death of Gods", and destroy values and religions. For that He calls for creation of "the super man" (the Supreme or the Superior)." The ideas of Zarathustra were the result of his long isolation on top of a mountain, which enabled him to reach his new ideas ; a new values he wanted to replace the

ancient that he saw no valid . Friedrich Nietzsche has presented solutions that have become tragic because they make the individual evade his beliefs and try to build a new intellectual and social system .

تمهيد

يعدُّ الفيلسوف الألماني "فريديريك نيشته Friedrich Wilhelm Nietzsche "(1844-1900)*من بين أهمّ المفكّرين والفلاسفة الأوروبيين الذين أثّروا في الفكر العالمي المعاصر، في مجال التّنظير الفلسفي وتجديد الفكر ونقد الموروث الفكري والدّيني الأوروبي، ولفهم فلسفته التي ضمّنها جلّ مؤلّفاته كان من اللاّزم وضعها في السّياق العام الذّي ظهرت فيه، فهو قد عاش في القرن التّاسع عشر، وفي خلاله بدأ الكتابة الفلسفية، وهو القرن الذي يُعتبر فترة تغيّرات كبرى في أوروبا والعالم؛ في مجال المعرفة وعلم الاجتماع والثّقافة والسّياسة والاقتصاد وغيرها، كما ولا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار السّياق الفكري والفلسفي الذي ظهرت فيه كتاباته، وكذلك فلاسفة ذلك القرن الذين تتلمذ على أيديهم أو عاصرَهم وعلاقاته معهم، حيث تُعتبر تلك السّنوات فترة انتقالية من عالم قديم إلى عالم حديث، وهي أيضا فترة صعبة مرّت بها أوروبا التي بدأت البحث عن طريقها نحو الاستقرار والتّقدّم والرقيّ، ففي هذه الظّروف المعرفية والثّقافية والسّياسية ظهرت كتابات **"نيتشه"** الذي كان عليه أن يؤسّسَ لفكر جديد يواكب مختلف تلك التحوّلات.كما يُمكننا فهم فلسفته بالنّظر إلى شخصيته هو كفرد أوروبي عاش حياة خاصّة، حيث ارتبطت فلسفته بشخصيته ارتباطا وثيقا، ولا يُمكننا فهم خطوطها العامّة دون أخذ كلّ ذلك بعين الاعتبار، حيث هناك **«شيء واحد اتّفق عليه كلّ من كتبوا عن نيتشه، وأكّده هو ذاته في كتاباته، وأعني به أنّ فلسفته قد امتزجت بحياته وأصبحت تكوّن قطعة منها، وأنّه يتفلسف بكيانه كلّه، وبوجوده الكامل، ولا يتفلسف نظريا، أو يفكّر في مشاكل تجريدية جامدة فقدت صلتها بالحياة. وهكذا كان نيتشه يمثّل نوعا فريدا من الفلاسفة، نوعا يجعل حياته في هوية مع فكره، ويقضي على كلّ حدّ فاصل بينهما، ولا يثق بأيّة مشكلة عقلية لا تسري مع الحياة في تيّارها، ولا تنبع من أعماق شخصية من يفكّر فيها»**[1]. ففلسفته مرتبطة بحياته ومرتبطة بمجتمعه وبعصره، فأن تقرأ فلسفة **"نيتشه"** تعني أن تقرأ -في الوقت نفسه أيضا-**"نيتشه"** وعصره .

كما تجبُ الملاحظة هنا، أنّه ومن خلال تناول هذا الموضوع لا نهدف إلى الإعجاب بفكر **"عدمي"** لا أخلاقي قائم على تهديم القيم وتحطيم الأخلاق المعهودة والتّشكيك في الدّين أو إضعاف الإيمان بالله، بل إنّ هدفنا هنا هو تقديم قراءة لفكر فيلسوف أوروبي نال مكانة كبرى كأكبر مؤثّر في التّحوّلات الفكرية المعاصرة في الغرب، وذلك بهدف فهم جيّد للفكر الغربي، وعلاقاتها المتشعّبة بالمجتمعات والثّقافات الأخرى وخصوصا الثّقافة العربية التي نحن جزء منها، بالإضافة إلى أهمّية إدراك مراحل تطوّر فلسفته التي لا تزال مؤثّرة في السّاحة الفكرية والاجتماعية المعاصرة، والتي أنبأت بمختلف ما تشهده المجتمعات الغربية المعاصرة من تطوّرات، فـ«**لقد كان نيتشه**

يفخر دائما بأنه يتحدّث للمستقبل، وبأنّ أفكاره لن تُفهم إلا بعد مائة عام. وقد تكون بعض اتّجاهاته الفكرية سابقة لأوانها بالفعل، غير أن موقفه العقلي العام، ونظرته إلى الحضارة الغربية بوجه خاص، تبدو لنا اليوم متخلّفة عن ركب العصر إلى حدّ بعيد»[2]. فـ**"نيتشه"** فيلسوف يرى نفسه صاحب نبوءة للبشرية، تُخرجهم مما هم فيه من تأزّم حضاري واضطراب اجتماعي، وظلّ يظنّ أنه صاحب مشروع لتخليص الإنسانية من كلّ ما تعانيه.

أولا: أزمة الغرب الحضارية؛ أسبابها وطرق الخروج منها

عاشت الحضارة الأوروبية أزمات كبيرة ومتلاحقة منذ خروجها من عالم القرون الوسطى، حيث لم تجد بعدُ، طريقها للخلاص، ويمكن تلخيص هذه الإشكالات في أزمات اقتصادية وحروب وصراعات بين الشّعوب والمجتمعات والثّقافات المحلّية خلال قرون طويلة، وهي الإشكالات التي منعتها من التّطور السّليم، ومن الوصول إلى تحقيق غاية الوجود، فكثرة الأخطاء وبروز الصّراعات والحروب وتصاعد الشّعور بالاغتراب جعلت الكثير من المفكّرين يُشيرون إلى أن الحضارة الغربية تعيش وضعا متأزّما، أصبح من الواجب معه أن يقترحوا حلولا للتّخفيف من حدّتها وتحقيق واقع أفضل، وقد برز في هذا المجال- بعد **"نيتشه"** مفكّرون من أمثال الفرنسيّين **"روني غينون"** في كتابه**"أزمة العالم المعاصر"**و كذلك**"روجي غارودي"** في مؤلّفه "**حوار الحضارات"** والمحلّل النّفساني**"سيغموند فرويد"** في مؤلّفه المعروف" Malaise dans la civilisation واللّبناني**"جبران خليل جبران"** في"النّبي" The prophet والشّاعر الإنكليزي-الأمريكي**"توماس ستيرنز إليوت"**في مجموعته الشّعرية الهامّة "الأرض الخراب" The waist land وغيرهم، حيث ومع اختلاف كتاباتهم، اشتركوا في إدراك وجود الأزمة وتوجيه الأنظار إليها واقتراح الحلول لها.

الفرنسي **"روني غينون"** René Guénon يُعتبر من بين أبرز المثقّفين الأوروبيين المعاصرين الذين أشاروا إلى الأزمة التي تعيشها الحضارة الغربية المعاصرة، والتي يُحدّد أسبابها في كتابه " **أزمة العالم المعاصر"** ويقترح لها الحلول، حيث يرى في البداية أنّه « **إذا قلنا إنّ العالم الحديث يعيش أزمة، فإنّ ما نعني بها هنا عادة، أنّه وصل إلى نقطة حرجة، وبعبارة أخرى، فإنّ تحوّلا أكثر عمقا يوشك أن يحدث، الأمر الذي يفرض بقوّة حصول تحوّل عميق وفي وقت قصير، بطريقة مفاجئة وبدون حصول كارثة»**[3].فهو يعترف بوجود أزمة في الفكر الغربي، وهي أزمة تزداد استفحالا يوما بعد يوم، وتفرض على المجتمعات الأوروبية أن تتصرّف بطرق مختلفة عمّا سبق، تجاه قضاياها المتعدّدة وأمور حياتها المتشابكة، ولذلك فهو يحاول أن يوضّح أنّ الغرب بدأ يفكّر في إحداث تلك التّحوّلات من أجل الحدّ من إشكالاته الحضارية، أو الخروج منها إلى واقع أفضل .

إنّ أزمة العالم المعاصر في نظر **"روني غينون"** متشعّبة الأسباب ومعقّدة الأصول، ولا يمكن النّظر إليها على أنها حدث عابر، بل هي -في نظره- تُمثّل تهديدا للحضارة

الغربية برمّتها، بالرّغم من أنّه يرى أنّ عددا من المفكّرين قد شعروا بها، وأحسّوا بضرورة المشاركة في تحديد أسبابها واقتراح الحلول للخروج منها، فمن أسباب الأزمة- بالنّسبة له- هي إقامة تقسيم حضاري وفكري وجغرافي بين الشّرق والغرب، حيث يرى أنّ «**واحدة من خصوصيات العالم المعاصر، هي التّقسيم الذّي نلاحظه بين الشّرق والغرب**»[4]. وهو تقسيم قائم على الاستبعاد ومشحون بالصراعات بين ما يَفترض نفسه "غربا" وبين ما يُسمّيه "شرقا"، وهي الفكرة التي كتب عنها أيضا إدوارد سعيد في كتابه"**الاستشراق**"، حيث يرى أنّ الاستشراق كمنظومة فكرية غربية هي في حقيقتها «**أسلوب تفكير يقوم على التّمييز الوجودي والمعرفي بين ما يُسمّى"الشّرق"وبين ما يُسمّى (في معظم الأحيان)"الغرب"**»[5].فالتّفريق القسْري بين البشر من الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى حصول هذه الأزمات التّي تزداد استفحالا يوما بعد يوم، وتزداد معها الاضطرابات والإشكالات وعدم الشّعور بالارتياح بين المجتمعات المختلفة، وانعكاسات ذلك على الثّقافات، فمسألة التّناقض بين "الشّرق"و"الغرب" نالت حظّها من اهتمام المفكّرين والفلاسفة باعتبارها إحدى محرّكات تلك الإشكالات، وسببا من الأسباب الهامّة فيما يحدث في عالم اليوم من صراعات، حيث «**تلك هي القضية الفكرية الرّئيسية التي يُثيرها الاستشراق [التّقسيم شرق/غرب]...**»[6]. فأساس الإشكالات بين الحضارات هي تلك الفروق التي تُقيمها بين ذاتها وغيرها من الذّوات، وبينها وبين غيرها من الثّقافات والمجتمعات على أساس أنّها مختلفة ومتناقضة، بينما هي ليست كذلك فعلا .

فـ"**غينون**" يعلمُ أنّ هذه الأزمة ليس من السّهل التّعاطي معها، لخصوصية الواقع المعاصر بمختلف تجاذباته الاجتماعية والسّياسية بين البلدان والثّقافات المتعدّدة، وهو -في الآن ذاته- يتنبّأ بحصول التّحول في الفكر المعاصر، الأمر الذي يكفل الخروج السّلس منها بدون حصول مضاعفات حضارية في بنية الفكر الغربي، ولذلك فهو يقترح العودة إلى مهد البشرية، وإلى التّراث الشّرقي القديم الدّيني والصوفي والأسطوري (العربي والفارسي والهندي)، باعتبار أنّ الشّرق مهدُ الدّيانات والحضارات، ومنه فهو يذهب إلى أنّه «**لقد أردنا على الخصوص أن نوضّح هنا كيف أنّ تطبيق المعارف القديمة تسمح بحلّ المسائل والقضايا المطروحة حاليا وبطريقة سريعة**»[7]. فالحلّ الأمثل - بالنّسبة له- يتمثّل في العودة إلى التّراث الإنساني القديم، فهو لوحده الكفيل بتنظيم حياة البشر وإخراجهم من واقعهم المتأزّم .

ونجد الأمر نفسه بالنّسبة للمفكّر الفرنسي الآخر"**روجي غارودي**"، والذّي يُشير إلى الأزمة التي تعيشها الحضارة الغربية، خصوصا فيما يتعلّق بازدياد الشّعور بالاغتراب والاضطراب، ويدعو إلى إعادة التّفكير في كلّ شيء، حيث يقول إنّه «**لا بدَّ في مجال العلاقات الاجتماعية والسّياسية في الغرب من إعادة صنع كلّ شيء بحسب قواعد جديدة؛ وإنّ تحقيق هذا المشروع يُوجب التّساؤل عن ضروب الحكمة والثّورة التي تحفل بها قارّات ثلاث**»[8]. فإعادة تركيب كلّ شيء هو الحلّ بالنّسبة لـ"**غارودي**"، ولن يتأتّى هذا إلا بمراجعة جذرية ومتواصلة لكلّ الفكر الغربي، ولعلاقاته بالشّعوب والحضارات الأخرى.

ثانيا: نيتشه ناقدا للغرب ولمنظوماته الفكرية

تحتلّ كتابات الفيلسوف الألماني "فريديريك نيتشه" أهمية كبيرة في الدّرس الفلسفي العالمي المعاصر، وذلك جرّاء تأثيراته الكبرى في التّيارات الفكرية والتوجّهات الحضارية التي تأثّرت بكتاباته الكثيرة وأفكاره الجريئة، ابتداء من بدايات القرن العشرين، ويرجع كلّ هذا لفكره الجريئ، وطرقه الكثير من الأمور التي أصبحت محور النّقاش في المجتمعات الأوروبية المعاصرة، وتناولنا لنيتشه ولفلسفته هو تناول لواحد من أهمّ المؤثّرين في الفكر المعاصر، والذي حاول تقديم وجهات نظر مختلفة عن مسار الفلسفة الغربية التي سبقته أو عاصرته، حيث «**إنّ نيتشه كان قبل كلّ شيء مفكّرا حضاريا، ورسالته في الحياة لم تكن رسالة فيلسوف صاحب مذهب نظري، وإنما كانت أساسا رسالة ناقد للحضارة التي يعيشها. وعلى الرّغم من كلّ ما امتازت به نظرته إلى الحضارة الأوروبية المعاصرة له من عمق ومن قدرة على النّفاذ إلى أبعد الأغوار، فإنّه كان ابنا لحضارة لم تكتمل. فنيتشه نتاج أصيل للقرن التّاسع عشر، وماكان في وسعه، وهو يعيش في ذلك القرن، أن يصدر حكما دقيقا شاملا على الحضارة الغربية المعاصرة له، لسبب واضح هو أن تلك الحضارة كانت تمرّ بفترة انتقال إلى عهد جديد لم تكن عناصره قد اكتملت بعد، بل لم يكن بعضها قد ظهرت بوادره أصلا**»[9]. فما تَميّز به فكره هو تلك القدرة على محاولة إدراك الأسباب وتوضيح المؤثّرات التّي جعلت الحضارة الغربية تعيش أزمات متكرّرة، انعكست على الإنسانية في مجملها، فقد قدّم مفكّرو الغرب وفلاسفتها حلولا للأزمة التي أشاروا إليها في مؤلّفاتهم، فكيف يتمثّل الحلّ بالنّسبة لنيتشه ؟

في إطار هذا المعنى يندرج بحثنا حول مؤلف هامّ من مؤلفاته، وهو **"هكذا تكلّم زرادشت"** الذي يُعتبر من أهمّ الكتب التي ألّفها نيتشه، ولقيت صدى كبيرا في أوروبا وفي العالم، حيث استطاع بفكره الوقّاد أن يوضّح الكثير من الأمور، وأن يبيّن للفرد مجالات لم تكن في متناوله، ويمكن القول بداية، «**إنّ نيتشه المفكّر الجبّار الذي يفتح أمام الفرد آفاقا وسيعة في مجال القوّة والثّقة بالنّفس وتحرير الحياة من المسكنة والذّلّ، تائقا إلى إيجاد إنسان يتفوق على إنسانيته بالمجاهدة والتّغلّب على العناصر والعادات والتّقاليد وما توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم، يقف وقفة الحائر عندما يُحاول إقامة مجتمع لأفراده المتفوّقين بل هو يضطرّ إلى نقض أوّلياته القائمة على احتقار الرّحمة والرّحماء**»[10]. ففلسفته منطلقة من الإنسان وقائمة عليه، حيث يمنحه القدرة على تغيير الواقع للأحسن، ويبيّن له الطّريق الواجب أن يسلكها من أجل الأفضل له ولعالمه، وإنّه وبالرّغم مما تحويه فلسفته من جوانب قد تبدو غريبة وغير مقبولة لدى الكثير من الباحثين ولدى الكثير من المجتمعات، إلاّ أنّه حاول أن يوضّح للبشرية طريق الخلاص وأسباب الخروج من الأزمات التي يعيشها في عالم متأزّم حضاريا وروحيا، وسواء أقبلنا حلوله أم رفضناها، فإنّ الفائدة المرجوة من تناولها بالبحث والدّراسة هو معرفة منهجية **"نيتشه"** وطريقته في فهم الواقع الإنساني بمختلف

تناقضاته وصراعاته، وهي الفائدة الكبرى المرجوّة من خلال هذه الدّراسة .

إنّ فلسفة "نيتشه" قائمة على مخالفة الأعراف والإتيان بالجديد في كلّ شيء، ولا يمكن أن نجد في غيرها من الفلسفات ما يُشبه فلسفته، فهو يحاول تقديم فكر جديد، ومنه فقد **« تبيّن لنا أن تفكير نيتشه وإن كان يقترب من بعض المذاهب الفلسفية المعروفة، فإنه أيضا لا يخضع لواحد من هذه المذاهب خضوعا تامّا، ولن تستطيع أن تجد بينها اسما شاملا ينتظم كل نواحي تفكيره، بحيث تندرج تحته فلسفة نيتشه مع غيرها من الفلسفات»**[11]. وهذه هي الميزة التي تميّزت بها فلسفته والتي لا تُشبه فلسفات غيره من المفكّرين والفلاسفة أو التّيارات الفلسفية التي سبقته، وتبقى الميزة الطاغية على فلسفته هي موقفه العدائي من الدّين ، حيث نجده قد **«كرّس جهد حياته ليوجّه إلى الرّوح الدينية أعنف نقد تعرّضت له خلال ألفي عام»**[12]. فـ"نيتشه" معروف بأنّه كان ضدَّ كلّ ما يمثّل الاعتقاد الدّيني والثّابت الذي كان يسم حياة المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت، ولذلك نجده يُقدّم نقدا لكلّ ذلك الموروث الذي عاش النّاس معتقدين فيه، ومؤسّسين حياتهم عليه لقرون عديدة .

ثالثا: عزلة الجبل ؛ الحكمة كما رآها زرادشت

ظهر كتابه **"هكذا تكلم زرادشت"** في نهاية القرن التّاسع عشر ، وبالضّبط بين سنتي 1883 و1885، أظهر فيه**"نيتشه"** براعة في تناول مسألة هامّة من مسائل الفكر المعاصر، وبيّن فيه قدرته الفكرية واللّغوية والأدبية، في دقّة الكلمات وبراعة الأفكار، فـ **«ليس كتاب زرادشت هو فقط عمل شاعر، إنه عمل فيلسوف، وفيلسوف مكتمل: ميتافيزيائي وأخلاقي؛ إنّ نسق الاهتمامات مثلما الشّكل بالذّات (صلابة التّخطيطات؛ غنى المفاهيم ودقتها، صرامة التّسلسلات، تواتر الإحالات الضّمنية إلى هذا الحدّ أو ذاك إلى هذا التّراث الفلسفي أو ذاك..) يبرّران هذه التّعابير كلّيا»**[13]. فما اشتُهر به نيتشه في كتابه المذكور هو الاتّساق في أفكاره والدّقّة في تصوّراته، والقدرة على تقديم الكثير من المفاهيم في وضوح ودقّة متناهية، الأمر الذي مكّنه من أن ينال الاهتمام الكبير في تلك الفترة الهامّة من فترات الفلسفة الأوروبية .

وبالرّغم من كونه فيلسوفا، وللفيلسوف طريقة في التّفكير وشكلٌ في الكتابة، إلاّ أنّه كان في كتابه هذا بارعا في التّصوير ومتميّزا في العبارة، حتى لا يمكن معه التّفريق بينه وبين أكبر الأدباء، حيث إنّه «**وعلى الرّغم من أنّ نيتشه كان فيلسوفا، يُخضع الأشياء لمنطق العقل الجبّار الذي لا يقنع بالأوهام، والخيالات الشّعرية، إلاّ أنّه في عبارته شاعر من طراز رفيع، وشعره مملوء بالخيالات الجميلة، والكيانات والاستعارات السّاحرة، والرّموز اللّطيفة البارعة**»[14]. فقد محا "نيتشه" في كتابه الحدود بين الفلسفة والأدب في الكتابة، لأنّ الفيلسوف ينطلق من العقلانية ويستعمل لذلك لغة خاصة؛ قائمة على البرهنة وتقديم الحجّة ومحاولات الإقناع، بينما نراه في كتابه أديبا بلغ درجة رفيعة من الرّقيّ الفنّي واللّغوي ما مكّن كتابه من أن ينال المكانة الكبيرة التي حُظي بها في الثّقافة الإنسانية المعاصرة .

وكتابه هذا، الذي خصّصه لتقديم فكره الخالص وتوضيح آرائه التي نالت اهتماما كبيرا من قبل النقاد والمهتمّين بالفلسفة الغربية، اختار له شخصية محورية هي الحكيم الفارسي المعروف "**زرادشت**"[15] وهو شخصية قديمة مشهورة تركت الكثير من الأفكار في الفكر الفارسي القديم، ويُوضّح سبب اختياره هذا حيث إنّ«...**نيتشه يقول إنّه اختار زاردشت بالضّبط لكي يجعل بطله يقول "العكس تماما"...لما قاله زاردشت التّاريخي. هكذا اختار نيتشه زاردشت ليضعه في معارضة زاردشت**»[16]. فنيتشه اختار هذه الشّخصية لكي يتمكّن من أن يوضّح أفكاره هو، وليس الأفكار التي جاء بها "**زرادشت**" الفعلي، وهي طريقة فريدة اعتمدها "**نيتشه**" في تقديم أفكاره، حيث جعله يقول ما لم يقله في الحقيقة، بل جعله في معارضة مع أفكاره الحقيقية، فأن تقرأ " **هكذا تكلّم زرادشت**" يعني أن تقرأ نيتشه وفكر نيتشه، وليس فكر "**زرادشت**" الحقيقي.

فـ"زرادشت" الحقيقي جاء بأفكار معروفة في كتب الفكر القديم، وهي القائمة على وجود إلهين يديران الكون وهما؛ إله الخير وإله الشرّ؛ وهما أصل كل الأفعال التي يقوم بها البشر، والحياة-في منظوره- عبارة عن صراع بين الإلهين، فقد «**قام دور زاردشت التّاريخي، في الواقع، على ابتداع ثنائية ذات مصدر أخلاقي ؛ ثنائية كانت تفسّر كل شيء بعمل مبدأين متصارعين، ثنائية أخلاقية كان أحد هذين المبدأين بالنّسبة له هو الخير، والآخر الشّرّ...إنّ هذه الثّنائية، وهذه النّزعة الأخلاقية هي ما سيرفضه زاردشت، الشّخصية الأدبية، لأنّ رفض هذه الثّنائية وهذه النّزعة الأخلاقية هو بالضّبط ما يشكّل نقطة أساسية في فكر نيتشه**»[17]. فزرادشت "**نيتشه**" يقف في تناقض ومواجهة مع فكر "زاردشت" الحقيقي، وقد قام "نيتشه" بهذه النّقلة بهدف توضيح أفكاره الجديدة، التي أراد لها أن تنال مكانتها في المجتمعات الأوروبية المعاصرة، واتّكأ عليه باعتباره شخصية معروفة من أجل أن يشدّ إليه القارئ، وأن ينال فكره هو المزيد من الاهتمام لدى كلّ من يريد فهم فكره الفريد، فذكاء "**نيتشه**" وقدرته على الإقناع قاداه إلى الاعتماد على شخصية تاريخية معروفة نالت هي أيضا الاهتمام في الفكر الشّرقي القديم والحديث على السّواء، حيث ما تزال أفكاره تنال قُدسية لدى الكثير من أتباعه المختفين وراء ديانات أخرى، و"نيتشه" يقوم بذلك من أجل تقديم أفكاره الجريئة، حيث «**يجري تقديم زرادشت إلينا دفعة واحدة كالمبشّر بانعطاف ثقافي كامل، كنَبيّ حضارة جديدة، لا إغريقية ولا مسيحية، بل جديدة بصورة جذرية**»[18].فهو يقدّمه كنبيّ، يُبشّر بحضارة جديدة تخالف ما عهده الأوروبيون من أفكار قديمة وفلسفات سابقة.

من خلال استعمال "نيتشه" لـ"زرادشت" فإنّه يقدّم فكره الجديد الذي ليس للبشرية عهد به ؛ فكر قائم على تهديم كلّ ما استقرّ من أفكار واعتقادات وتحطيمها من أجل إحلال فكر جديد، يرى أنّه السّبيل الوحيد لخلاص البشرية من أزماتها الحضارية المتلاحقة، حيث إنّنا «**سنرى من جهة أخرى أنّ الملمح الجوهري للثّقافة الجديدة التي يتطلّع إليها نيتشه، إنما هي الإبداع، والعفوية، والفنّ، التي يشكّل اللّعب أو النّشاط الطّفولي، أو الرّقص أفضل صورها، والذي قد يكون رمزها ديونيزوس، إله**

السُّكْر والرّقص، لا سقراط. إنّ ما يُطالب به نيتشه إنما هو ثقافة يستعيد الدّيونيزوسي، المخنوق منذ اليونان الكلاسيكية بيدي الأبولوني والسّقراطية يستعيد فيها مكانته بالضّبط»[19]. فهو على لسان الشّخصية المحورية لنصّه يقوم بتحطيم كلّ الفلسفات السّابقة وخصوصا الإغريقية القائمة على العقلانية، ويمضي في تهديم كلّ الموروثات القديمة التي يرى أنّه قد تجاوزها الزّمن، وأنّها لم تقد البشرية سوى للكثير من المآسي والإشكالات، ولذلك حان وقتُ طرحها جملة، والّتأسيس لفلسفة جديدة اختار لها شخصية جديدة استند عليها لتقديم ذلك .

ففيم تتمثّل الفلسفة الجديدة التي يقدّمها نيتشه ؟ وما هي الضوابط التي تُحكمها والعناصر التي تقوم عليها ؟ يمكن القول إنّ منظومة "نيتشه" التي جاء بها على مؤسّسة على أفكار لم يكن للإنسانية عهد بها، حيث «**يؤسّس نيتشه على كلّ ذلك منظومة تقويم جديدة كاملة تحل فيها الـ"نعم" والـ"لا" محلّ كلّ القيم التّقليدية، منظومة تقدير لا يماثل فرادتها غير عمقها. هكذا نرى زرادشت يستبدل خير الأخلاق القديمة بصفة ما للإرادة: إرادة الخلق، إرادة الامتداد، إرادة النّمو، إرادة المقدرة الذّاتية؛ ويطرح على العكس كقيمة سلبية، لأجل استبدال شرّ الأخلاق، الإرادة المعاكسة، إرادة التّدمير، والتّهاون والرّضى عن الذّات، والطّمأنينية المسترخية، التي تُعيق كلّ إرادة تجديد**»[20]. فهو يعارض الفلسفات القديمة وما أشاعته من آراء وما كرّسته من أنساق في الفكر، ويقدّم أفكاره القائمة على الإرادة الفردية بمختلف أوجهها والقائمة على الخلق والإبداع، وعلى النّمو، وفتح المجال أمام القدرات الفردية للإنسان حتى تتحرّر وتبدع في إنجاز ما عليها إنجازه خدمةً للبشرية- كما يرى- وتحقيقا للتّطور والتّحضّر، فـ"زرادشت" يرى نفسه نبيا، يحمل الخير للإنسان، يقرّر الاعتزال لتلقّي"الحكمة" وتمريرها للإنسانية، «**وهكذا ترى زرادشت الدّاعي إلى تحطيم ألواح الوصايا جميعها وإلى إنكار الشريعة الأدبية لإقامة شرعة جديدة ما وراء الخير والشرّ يعود مفتّشا بين أنقاض الألواح التي حطّمها على كلمات قديمة يجعلها دستورا لإنسانيته المتفوّقة**»[21]. فحكمته قائمة على تحطيم كلّ ما سبق بناؤه من قبل وإرساء بناء جديد يرى أنّه الأصلح لقيادة البشرية للخروج من أزمتها الحضارية. غير أنّ" نيتشه" غفل عن أنّ الوجود كلّه مرتبط بمُوجده، والإنسان منذ آدم في حاجة لخالقه، لأنّ هناك قوانين إلهية تُحكم سيرورة الحياة وتضبط كلّ ما يتعلّق بها، وحرية الإنسان لا يُمكن أن تكون بمعزل عن فطرة الله التي فطر النّاس عليها، وحرية الفرد بدون ضوابط التي يُؤمن بها "نيتشه" لا تقود سوى للضّياع ولمزيد من الأزمات الروحية والحضارية.

- حكمة "نيتشه" الجديدة (موت الإله/ الإنسان المتفوّق)

الأفكار التي جاء بها "زرادشت" كانت نتيجة من نتائج عزلته الطّويلة على قمّة جبل، وهي العزلة التّي مكّنته من الوصول إلى ما وصل إليه من تفكير؛ في قيم جديدة أراد إحلالها مكان القيم القديمة التي رأى أنها بَليت ولم تعد صالحة، ولذلك فإنّ أهمّ الأفكار

التي وصل إليها "زرادشت" كانت من وحي عزلته تلك ونتيجة تأمّله العميق واستغراقه في التّفكير الهادئ بعيدا عن الضوضاء، حيث إنّه «**بعد سنوات عديدة قضاها زرادشت متوحّدا في جبله، ينتظر أن تحين ساعة تبشيره الجديدة. لما كان طافحا بالسّخاء، هاهو مستعدّ تماما لأن يقدّم للنّاس عسل خُطبِه، كي يجتذبهم...**»[22]. فالجبل هو المكان الذي أوحى له بكلّ ما حمله للنّاس من "حكمة"، غير أنّ تلك الحكمة لم يُرد أن يستأثر بها، بل كان عليه بعد عشر سنوات كاملة من عزلته تلك أن ينقلها لأولئك النّاس الذين اجتمعوا لمشاهدة البهلواني.

قصّة الكتاب قائمة على شخصية "زرادشت"، الذي يصعد قمة جبل للاعتكاف بهدف التّأمل والتّفكير في واقع البشرية، محاولا استلهام الحكمة التي تساعدها على الخلاص من أزماتها الحضارية والفكرية والرّوحية، وقدّم خلاصة هذه الحكمة القائمة على "طرح الموروث السّابق"، و"موت الإله" و"محاولة القضاء على القيم والدّين"، و"إنشاء الإنسان المتفوّق (أو الأسمى، والأرقى)"، ومن أجل توضيح حكمته، ارتأى نيتشه أن يجعلَ "زارا" يعتزل النّاس فوق قمّة الجبل، حيث إنّه «...**بعد أن بلغ الثّلاثين من عمره-قد اعتكف فوق الجبل عشر سنوات، يستمتع بعزلته، ويستلهمها رسالته المقبلة، ثم نزل بعد ذلك إلى مدينة (البقرة المتعدّدة الألوان) لكي ينشر بين النّاس الحكمة التي تعلّمها في العزلة، وليبصّرهم بكلّ شأن من شؤون الحياة، لكي يقودهم إلى حيث يَرضون بالفناء لأجل الوصول إلى خلق الإنسان المتفوّق**»[23]. فسنّ الثلاثين جعله نيتشه السّن المناسب لعزلة "زرادشت" لتلقّي الحكمة، بخلاف غالبية الأنبياء الذين بعثهم الله رُسلا مبشّرين، ومنذرين، فقد نزل الوحي على النّبي محمد بن عبد الله –صلّى الله عليه وسلّم-بعد سنّ الأربعين، وهي السّنّ المناسبة لرجحان العقل والنّضوج الذّهني والفكري، غير أنّ "زرادشت" بدأ يفكر في تقديم حكمته للبشر في تلك السّنّ المبكّرة[24].

يُواصل "**نيتشه**" سرده لقصّة "نبيّه" الذي وبعد تلك السّنوات الطويلة التي قضاها في عزلته الجبلية، "نزل قاصدا المدينة التي ترامت تحت سفح ذلك الجبل، وصادف أثناء نزوله خروج شيخ من كوخه لبعض شؤونه فتعجّب لرؤية "زرادشت" الذّي بدا مختلفا عنه قبل أن يصعد إلى لجبل، وبادر بالحديث معه مستغربا تركه لعزلته، مشبّها إياها بالبحر، متعجّبا من مُضيّه للمدينة (اليابسة كما يصفها)، لكنّ "**زرادشت**" أخبره بأنّه يحبّ النّاس، بينما كان الشّيخ يحب الله"[25]، وعند ذلك دار هذا الحديث بينهما، «**...انحنى زارا مسلّما وقال للقدّيس:أي شيء أعطيك؟ دعني أذهب عنك كيلا آخذ منك شيئا. وهكذا افترقا وهما يضحكان كأنّهما طفلان. وعندما انفرد زارا قال في نفسه: -إنّه لأمر جد مستغرب، ألمّا يسمع هذا الشّيخ في غابه أنّ الإله قد مات؟**»[26] . فهو يذهب إلى أنّ "الإله مات" ويتعجّب ممّن يزال يؤمن به، ولعلّ هذا الموت -بالنّسبة له- رمزي، أراد به أن يدعو إلى ضرورة أن يُظهر الإنسان فرديّته، وأن يعتمد على قدراته من أجل التّأسيس لحضارة البشر، يتدبّر بها شؤونه آخذا بعين اعتباره وقائع حياته، مستبعدا الشّرائع الدّينية التي هي –بالنّسبة له- سبب كلّ ما لحق الإنسان في حياته من مآسٍ، وهو فيها يستند إلى ما

وقع في أوروبا، عبر تاريخها، من حروب وجرائم قتل وتعذيب باسم الدّين.

ذهب نيتشه بفكرة "موت الإله" إلى مدى بعيد، وهي وإن كانت فكرةً رمزية، يقصد بها –كما نرى- كلّ الثّوابت التّاريخية التي اعتقد فيها الإنسان منذ القديم، وكلّ أساس تستند إليه الثّقافة الأوروبية، إلاّ أنّها تُمثّل خطورة كبيرة، لأنّها أفرغت حياة البشر من معناها، ولم تزد أزمة الغرب الحضارية سوى استفحالٍ، فلا يمكن للبشر أن يعيشوا بدون ثوابت، وإنّ الحقيقة التي كان من اللاّزم سواء على "نيتشه" أو على غيره، أن ينتبه لها هي أنّ سبب أزمات الإنسانية كلّها تعود لبعدها عن الثّوابت والقوانين الإلهية، وهو – هنا- ينطلق من فلسفة "العدمية"[27]،التي أفرغت البشر من جوانبهم الرّوحية، حيث «**يُطلق نيتشه اسم"عدمية"على الأديان والعقائد التي يُشيّدها الإنسان لنفسه ليهرب أمام رغبته في العيش. لكن مع موت الإله" ضاع معنى هذه الأديان. محكوم على الإنسان أن يعيش مُبتكرا وشاعرا، وأن يؤكّد ذاته بذاته**»[28]. فالأديان والشّرائع- في فكر "نيتشه" هي سبب كلّ ما عاشه البشر وما يعيشونه من آلام، وهي المُحدّد الأوّل الذي جعل حضارة الإنسان تراوح مكانها ولم تستطع التّقدّم إلى حياة أفضل .

يتخلّل سرد "نيتشه" على لسان "زرادشت" في الكتاب، حوار بينه وشخصيات يصادفها في طريقه وهو نازل من الجبل، أو في المدينة، حين يقف يخاطب الحشد الذي اجتمع في ساحة المدينة ينتظر رؤية المهرّج ليمتّعهم بحركاته البهلوانية وأعماله العجيبة وألعابه الممتعة، وهو في كل مرّة يحاور شخصا أو يقابَل بردّ فعل من الجمهور، ينتهي به الأمر إلى اكتشاف أشياء تجعله يضبط رؤيته أكثر، ويصرّ على قول ما جاء من أجله، وعلى إبرازه فكرته الثّانية، وهي فكرة "الإنسان المتفوّق" أو"الإنسان الأسمى"، فكلّ فلسفة "نيتشه"تدور حول هذه الفكرة التي يعتبرها أساسية، تقوم عليها حكمته كلّها، حيث«**...يُقدّم نيتشه كلّ الموضوعات...واحدة بعد الأخرى، والتي تتحلّق حول فكرة الإنسان الأسمى المركزية**»[29]. ففكرة الإنسان الأسمى أو المتفوّق تدور عليها مجمل أفكاره، ولذلك جعل "زرادشت" حين يصادف الحشدَ مجتمعا في ساحة المدينة، يخاطبهم في البداية قائلا: « **إنني آت إليكم بنبأ الإنسان المتفوّق، فما الإنسان العادي إلاّ كائن يجب أن نفوقه، فماذا أعددتم للتّفوّق عليه؟...لقد أتيتكم بنبأ الإنسان المتفوّق. إنّه من الأرض كالمعنى من المبنى، فلتتّجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوّق معنى لهذه الأرض، وروحا لها**»[30]. فالإنسان المتفوّق أو الأسمى هي الفكرة الهامّة الأخرى التي نزل "زرادشت" داعيا إليها، بعد أن رأى أن "الإله قد مات" فإنّ المجال مهيّأ لظهور الإنسان المتفوّق، الذي هو محور الكون بعد خلوّ الأمر له، وهو الكفيل بأن يقود البشرية إلى ما يرى أنه مفيد لها ولمستقبلها.

هذا الإنسان الذي يدعو "زرادشت" لتحقيقه يمتلك مجموعة من القيم ويتّصف بعدد من الصّفات، حيث إنّ«**الإنسان الأسمى بالذّات، الذي تُحرّكه الفضيلة الجديدة لأخلاق جديدة، إرادة القوة، سوف يباشر الطور الثّاني من تحويل القيم، أي خلق قيم جديدة، انطلاقا من واقع أنّه لم يعد هنالك أيّ كائن مفارق ليتولى فرضها**»[31]. هنا تظهر

بجلاء، فلسفة "نيتشه" التي جاء بها على لسان "زرادشت"، حيث إنّ الغاية من الإنسان المتفوّق هي تقديم قيم جديدة، والقضاء على القيم القديمة، وهذا ليس بالأمر الغريب، فقد عُرف "نيتشه" بأنه ضدّ كلّ الموروث القديم ؛ الدّيني منه على الخصوص، والذي يرى بأنّه السّبب الأساسي لضياع الإنسانية وتخبّطها الحضاري، ولذلك فهو يريد استبداله بتلك القيم التي لم تعد ذات فائدة، ومنه فإنّ «**فكرة الإنسان الأسمى هذه هي الفكرة الأساسية في الاستهلال، والمفهوم الوحيد بين المفاهيم الأساسية في فكر نيتشه الذي سماه بصراحة ووضوح (في إطار هذا الفكر).أما المفاهيم الأساسية الأخرى، أي العدمية، وإرادة القوة، والعودة الدّائمة، فحاضرة بالتّأكيد لكن بصورة ضمنية**»[32]. فكلّ فكرة من أفكار نيتشه تُحيل إلى وجوب ظهور الإنسان المتفوّق.

يقوم "نيتشه" بتهديم كلّ الموروث الدّيني الذي استقرّ في بنية الثّقافة الأوروبية، والقضاء على القديم تعني الإتيان بالجديد، ولذلك فـ «**نيتشه أراد أن يحطّم ألواح الإنسان القديمة كلّها ، ليقيم على أنقاضها ما يدعوه بالسُّوبرمان**»[33]. فهو من أنصار القطيعة مع الماضي ومع الموروث الفكري-الفلسفي والدّيني، حيث لا مجال لأن يكون للشّرائع الدّينية مكانة في حياة البشر، انطلاقا من فلسفته العدمية القائمة على استبعاد القيم والأخلاق من توجيه حياة النّاس، فإذا كان من اللاّزم للبشرية من أن تُحقّق نهضتها الفعلية فما عليها إلا أن تتخلّص من المعوّقات التي تمنع ذلك، ونظرته هذه سوداوية ومعادية للدّين، ليس الدّين كعقيدة بل كممارسة، أصبحت الإيديولوجيا عنصرا هاما في فهمه وتطبيقه، حيث أدّت بالبشر إلى الابتعاد عن أهدافهم التي وُجدوا من أجلها، فهو يرى بأنّه كلّما رجع النّاس إلى جوهر فردانيتهم بعيدا عن كلّ معتقد كلّما استطاعوا تحقيق واقع أفضل، بالرّغم من خطورة القطيعة مع الماضي، إلاّ أنّها في نظر "نيتشه" الحلّ الصحيح الذي يكفل لهم مستقبلا أفضل .

بعد أن أطال "زرادشت" في توضيح معنى الإنسان المتفوّق وشرحه للنّاس دعا المجتمِعين في ساحة المدينة، إلى قبول حكمته الجديدة، وما إن « **فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلا (لقد كفانا ما سمعنا عن البهلوان، فليبرز لنا الآن لنراه). فضحك الجميع مستهزئين بزارا، وتقدّم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث. وبُهت زارا مُجيلا أنظاره في القوم، ثمّ قال: ما الإنسان إلا حبل منصوب بين الحيوان والإنسان المتفوّق، فهو الحبل المشدود فوق الهاوية**»[34]. فلم "يستطع الحشد أنْ يفهم أنّه أمام حكيم جاء ليعلّمهم أشياء وصل إليها بتأمّله وعزلته في الجبل، بل كانوا متشوّقين لرؤية المهرج، ولم يستطيعوا استيعاب ما كان يحدّثهم به، بل رأوا أنّ ما كان يقوله "زرادشت" هو تمهيد لظهور المهرّج الذي ينتظرونه، لكنّه أطال حديثه حتى ملّوا منه وألحّوا على ظهور المهرّج وبداية مُتعتهم في مشاهدة ألاعيبه".[35]

لكن "زرادشت" وبالرّغم من إعراض الحشد عنه، "واصل عرض حكمته متحدّثا عن العمل والإنسان المتفوّق، وعن الحياة والعلم وعن الخلف وعن السّلف، وعن تحرّر العقل وتحرّر القلب، وعن بذل النّفس وغيرها من مقولاته التي أراد للنّاس أن يتّبعوها"[36]،

حيث «**وبعد أن ألقى زارا هذه الكلمات أجال أنظاره في الحشد وسكت ثم قال في قلبه، : لقد تملّكهم الضحك، فهم لا يفهمون ما أقول، وما أنا بالصّوت الذي يلائم هذه الأسماع. عليّ أن أسدّ آذانهم ليتمرّنوا على الإصغاء بعيونهم، أم يجب أن أضرب الصّنج أسوة بوُعّاظ الصّيام؟ لعلّ هؤلاء القوم لا يثقون إلا بالألكن من المتكلّمين**»[37]. لم يُثن إعراض النّاس عن سماع "زرادشت"، بل رأى أن عليه أن يُرغمهم على سماعه جيّدا وإدراك معنى ما جاء من أجله، وأن ينقل لهم حكمته التي رأى أنها ذات أهمية كبيرة. و"زاردشت" في خلال كلّ هذا، يتكلّم ويفكّر في الآن ذاته، فالحكمة التي نزل من الجبل وفارق عزلته من أجل نقلها للبشر سرعان ما يعيد تجديدها من خلال تأمّله لكلّ ما يحيط به، ولكلّ من يصادفه في طريقه، ولم يشكّ لدقيقة أنه سيترك ما جاء من أجله.

بعدها "يظهر المهرّج ليمتّع الحشد الذي جاء- في الحقيقة- من أجله، ويبدأ العرض، ليظهر مهرّج آخر يخرج من البرج، وفي أثناء منافسة جرت بين المهرّجين يسقط المهرج الأول من على الجبل ميتا، وينتهي الأمر بقيام "زرادشت" بحمله بعد أن دعاهُ مهرّج البرج للرّحيل عن المدينة، لأنّه كان يسمع ما كان يقوله للحشد من أشياء لم يكن راضيا عنها، ووسط استهزاء الحشد بـ"زرادشت"، ولأنّه كان - بحسب مهرّج البرج -يمثّل خطرا على كلّ مَن بالمدينة من أهل الصّلاح والعدل والمؤمنين بالدّين وعلى العامّة من النّاس كذلك، فقد حذّره مهرج البرج من أنّه لن يَسلم في المرّة الثّانية، ويخرج "زرادشت" من المدينة حاملا معه جثة المهرّج الأوّل ومرّ به على حُفّار القبور الذين لم يتوانوا من السّخرية منه، فمضى في طريقه خارج المدينة"[38]، وهكذا «**وبعد أن مشى ساعتين يقطع الأحراج والمستنقعات، شعر بالجوع...فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الأنوار من نوافذه...وطرق باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلا، وقال له من الآتي إلي...فأجاب زارا أتينا إليك اثنين حيّ وميت، أعطني مأكلا ومشربا...فقال زارا إنّ رفيقي ميّت ولا يسهل علي إقناعه بتناول الطعام**»[39]. فشل "زرادشت" في إقناع الناس وكلّ من بالمدينة بسماعه واتّباع حكمته، لأنه كان يمثّل خطرا على اعتقاداتهم التي يحافظون عليها ويتمسّكون بها، وقرّر ألا يعود إلى مخاطبة النّاس بالشّكل الذي فعله، بل قرّر أن يختار طريقة أخرى، وهي أن يصنع أتباعا يَقبلون فكره ويحتضنون حكمته ويحافظون عليها، وبهم يمكنه أن تلقى أفكاره الصّدى، وتُحقّق ما يهدف إليه، والشّيوعَ الذي أراد له أن يتحقّق لفلسفته الجديدة، وبعد نومه في الغابة، استيقظ مكتشفا فكرة جديدة، وبدأ يحدّث نفسه «**إنّني اطلب رفاقا أحياء يتبعونني لأنّهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيّان توجّهت...لقد انفتحت عيناي ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقا، يجب ألّا يكون زارا راعيا للقطيع وكلبا له. إنّني ما جئت إلّا لأخلّص خرافا عديدة من القطيع**»[40]. فـ"زرادشت" رأى أنّ عليه أن يتبع استراتيجية جديدة من أجل تحقيق هدفه؛ وهي قائمة على مخاطبة الأفراد لا الجماعات، وهي الطّريقة الوحيدة التي تسمح له بأن ينجح في مشروعه، "ثمّ يقوم بعدها بدفن جثّة المهرّج في فراغ شجرة بالغابة ويمضي في مسيره" [41].

يواصل "زاردشت" ذكر أفكاره من خلال خُطب ليست للعامّة من النّاس، كما فعل أول الأمر، يستعرض فيها ما وصل إليه من خلال تأمّله العميق لسنوات عديدة على قمّة الجبل، "ويدعو من خلالها إلى إيقاظ جذوة العقل حتى يبسط سيادته على فهم الإنسان لذاته ولواقعه ولموقعه في الحياة ووظيفته وبين التّنين والأسد يقيم "زاردشت" مفارقته وتمثيله ثم ينتقل إلى الحديث عن الفضيلة، وكذلك عن الملذّات والشّهوات"[42]، وهي خلاصة الحكمة التي وصل إليها، ويؤكّد قائلا إنّ «**من يُحوّمْ فوق أعالي الجبال يستهزئ بجميع مآسي الحياة، ويستهزئ بمسارحها، بل بالحياة نفسها**»[43]. فللجبل رمزية كبيرة في كتاب "هكذا تكلّم زرادشت" فهو المكان الذي مكّنه من الوصول إلى ما وصل إليه من حكمة، والحكمة هي أيضا في العزلة، ولذلك يوضّح فائدة اعتزال النّاس، لأنّها السّبيل الوحيد للصّلاح، «**أتقصد العزلة يا أخي، لتجد الطريق التي توصلك إلى مكمن ذاتك ؟ إذن فقف قليلا في تردّد وأصغ إلي: لقد قال القطيع: (من فتّش فقد تاه، ومن انعزل فما أمن العثار)...إنّ اشتراكك بالشّعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم**» [44]. فاعتزال الحشد فرصة لتجديد الأفكار ومعرفة الطّريق، وكلّما اقترب الفرد من الحشد كلّما ابتعد عن رؤية الحقيقة وعن الهدف من الحياة

.

خلاصة

إنّ "فريديريك نيتشه" يعدّ من بين المفكّرين الأوروبيين الذين ساهموا في إحداث تحوّلات كبرى في الفكر المعاصر، وفي المجتمعات الأوروبية والغربية عموما، ويُعتبر مؤلّفه "**هكذا تكلّم زرادشت**" من المؤلّفات التي تقدّم حلولا للأزمات التي عاشتها المجتمعات في أوروبا على الخصوص، وهي حلول تتّخذ طابعا مأساويا لأنّها تجعل الفرد يتنصّل من معتقداته وأفكاره الموروثة ويحاول بناء منظومة فكرية-اجتماعية واعتقادية جديدة، وبالرّغم من كلّ هذا فإنّ فلسفة "نيتشه" تُعدّ لدى فلاسفة عصره ولدى الكثير ممن درسوه غير مُجدية لأنّها لم تنتشر، كما كان يريد لها أن تكون، حيث «**...إنّ الإنسان الأرقى، أو "ما فوق الإنسان"، كما تصوّره نيتشه، لن يظهر بوصفه امتدادا وارتقاء للفرد الأرستقراطي المنعزل، بل إنّ الشّواهد كلّها تدلّ على أنه سيظهر من"المجموع"- من أولئك الذين كان نيتشه يعدّهم عبيدا لا سادة. والصّراع الثّقافي والأخلاقي والفنّي في عصرنا الحالي لا يحمل شيئا من آثار "تنبوءات" نيتشه، وإنما يسلك طرقا لم يكن في مقدروه أن يتنبّأ بها على الإطلاق**»[45]. بالرغم من إعطاء نيتشه قيمة للعقل كضابط لحياة البشر إلّا أنّ نبوءاته على لسان "زرادشت"، لم تعد لها مشروعية الوجود كحلّ للخروج بالإنسانية إلى برّ الأمان، فهي لم تَهد الغرب إلى طريق صلاحه ونجاحه وتأمين مستقبل البشر، والدّليل على هذا هو الصّراع الحضاري بمختلف أشكاله الثّقافية والسّياسية والاجتماعية والاقتصادية الذي أصبح ميزة العصر الحالي، فمن فكرة "موت الإله" مرورا بإسقاط القيم وتحطيم الدّين إلى خلق "الإنسان المتفوق"، تبدو فلسفة "نيشته" غير ذات جدوى لمجتمعات لا تزال متشبثة بالدّين، ولذلك فإنّ «...**دعوة نيتشه فقد جاءت لتزيد الغرب المادي المُلحد إلحادا ومادية، ولتزيد قلوب أبنائه قسوة وتصلّبا،**

وبُعدا عن معاني إنسانيتها الصّحيحة، وعن الظلّ الإلهي الذي تجد فيه راحتها واطمئنانها، وسعادتها»[46]. بالرّغم من أنّ العزلة فوق قمّة الجبل تقود إلى الحكمة والصّلاح، إلاّ أنّ ما وصل إليه "زرادشت" أبعدت البشر عن إنسانيتهم الحقيقية، فالفرد لا يعيش بمفرده بل وسط مجتمع، وتنتظم حياته في إطاره، وإنّ تكريس الفردية هو تكريس للبعد عن هذا الإطار، والدّينُ من أهمّ ما يعطي للمجتمعات معناها ويرسم هويتها .

إنّ الحكمة التي وصل إليها "زرادشت" لم يكن بإمكانه أن يُقنع بها مجتمعه، ولذلك أراد أن يغرسها في عدد قليل من أتباعه، حتى يمكنها أن تنتشر، «**فما الذي نأخذه اليوم على نيتشه؟ إنّنا نأخذ عليه، قبل كلّ شيء، نزعته إلى اللاّمعقول، وإلى الفردية المفرطة.**»[47]. بالرّغم من أنّ"نيتشه" أسّس لفكر جديد ومارس تأثيرا كبيرا في ظهور فكر مابعد الحداثة، القائم على الفردية واللاّمعقول، وهو الفكر الذي يطغى اليوم في أوروبا وغيرها، إلاّ أنّه يُعتبر فيلسوفا متطرّفا، لم يزد البشرية إلا ضياعا .

---

* - تُعدّ حياة نيتشه ثرية إلى حدّ كبير، وذلك من خلال المراحل التي قطعها كطالب ثم أستاذ بالجامعة، كما أنّه عايش الكثير من الظّروف التي مرّت بها أوربا ،كالحروب المحلية والعالمية والتي شارك في بعضها. وقيمته الكبيرة التي استحقّها كانت بفضل مؤلّفاته القيّمة التي تدلّ على غزارة فكره وقدرته الفائقة على التّأليف والكتابة، ولمعرفة المزيد عنه يمكن القول إنّه « في 15 أكتوبر من عام 1844 ولد نيتشه في ريكن... قرب ليبسج، وكان معظم أفراد أسرته من رجال الدّين...عاش نيتشه بعد وفاة أبيه في بيئة نسائية خالصة، ولا بدّ أن هذه البيئة لم تكن تروق له، إذا حكمنا على الأمر في ضوء حملته على المرأة فيما بعد...التحق بجامعة ...وخلال تلك الفترة بدأ اتّجاهه يتبلور في Bonn دراسة اللّغويات والآداب الكلاسيكية، وأخذ ينصرف عن اللاّهوت...وخلال هذه الفترة اهتدى نيتشه إلى مصدرين أساسيين من المصادر التي استقى منها تفكيره، ودارت فلسفته حولها...شوبنهاور ...أوّل كتاب له Wagner وفاجنرSchopenhauer وهو "ميلاد المأساة من روح الموسيقى"...وبدأت فترة من التّأليف العقلي النّقدي، ظهر فيها تحرُّره بوضوح، وبدأ فيها يوجّه نقده إلى كل مقوّمات العصر، فظهر له كتاب" أمور إنسانية، إنسانية إلى أقصى حدّ"... ثمّ بدأت فترة من التّأليف الخصب، ظهر له فيها "العلم المرح"(1882) و"هكذا تكلّم زرادشت" (1883-1885) و"بمعزل عن الخير والشرّ" (1885) و"أصل نشأة الأخلاق"(1887).وفي خلال كلّ ذلك كان يُعِدّ مواد كتابه الأكبر الذي كان ينوي فيه تدوين خلاصة فلسفته بطريقة منهجية منظّمة، والذي لم تتح له فرصة إتمامه وتنسيقه، فنُشر كما تركه ضمن مؤلّفاته المختلفة وهو كتاب"إرادة القوة" (1884-1888)...وحتى العام الأخير من حياته الواعية ظلّ نيتشه يؤلف بغزارة فأخرج رسالتين عن "فاجنر" هما "قضية فاجنر"، و"نيتشه ضد فاجنر"، وانتهى عهده بالتأليف بكتاب "هو الذي تحدّث فيه عن Ecco homoذا الرّجل" شخصيته هو...وفي حدود عام 1888 بدأت أعراض الجنون الحقيقية تظهر عليه. وقضى ما يقارب من اثني عشر عاما في فيمار Weimarبعيدا كل البعد عن عالم العقلاء إلى أن مات في 25 أغسطس سنة 1900» يُنظر؛ فؤاد زكريا، نيتشه، دار المعارف بمصر، الطبعة الثّانية، الصفحات 21/ 22/23/24 بتصرّف.

[1]- فؤاد زكريا، نيتشه، دار المعارف بمصر، الطّبعة الثّانية، ص17

[2]- فؤاد زكريا، نيتشه، مقدّمة الطّبعة الثّانية، ص9

[3]- René Guénon , la crise du monde moderne, Gallimard .1946, avant-propos p 9

[4]- René Guénon, la crise du monde moderne, Gallimard, 1946, p37

[5]- إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشّرق، ترجمة محمّد عناني، المقدّمة، دار رؤية للنّشر والتوزيع، الطّبعة الأولى، 2006، ص 45

[6]- إدوارد سعيد،الاستشراق؛ المفاهيم الغربية للشرق، ص 104

[7]- René Guénon la crise du monde moderne Gallimard 1946, p168

[8]- روجي غارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوّا ، منشورات عويدات .بيروت، الطبعة الثانية 1982. المدخل، ص 10

[9]-فؤاد زكريا، نيتشه، مقدمة الطّبعة الثّانية، ص 8

[10]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير. الإسكندرية ، 1938، تمهيد ، ص "و/ ز"

[11]- فؤاد زكريا، نيتشه، ص 48

[12]- فؤاد زكريا، نيتشه، ص 21

[13]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، مجد المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع. بيروت،الطّبعة الثّانية، 2002، ص 113

[14]- عيسى النّاعوري، أدباء من الشّرق والغرب، منشورات عويدات. بيروت، الطّبعة الثّانية، 1977، ص 77 / 78

[15]- «لقد اختار نيتشه وسيطه حكيما فارسيا قديما» يُنظر؛ عيسى النّاعوري، أدباء من الشّرق والغرب، ص 76

[16]-بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 31/ 32

[17]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 32

[18]-بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 35

[19]-بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 39

[20]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 72

[21]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، تمهيد، ص "ز"

[22]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 143

- عيسى النّاعوري، أدباء من الشّرق والغرب، ص[23]77

[24] - «لما بلغ زارا الثّلاثين من عمره، هجر وطنه وبحيرته وسار إلى الجبل حيث أقام عشر سنوات يتمتّع بعزلته وتفكيره إلى أن تبدّلت سريرته» يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 3

[25] - يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 4

[26]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 5

[27] -«العدمية حركة فكرية عميقة التّشاؤم والخيبة، تبلورت بداية في أوروبا في نهاية القرن الـــ19 . نقطة انطلاقها هي تحقّقها من "موت الإله". إذا كان "الإله قد مات "كما يؤكّد نيتشه...فالعالم إذن ليس له معنى. لا توجد آخرة وليست هناك أسس نهائية لقيمنا. لا يمكننا الإيمان بشيء (تعني كلمة nihil في اللاّتينية لا شيء). تُنادي العدمية إذن بخلوّ القيم السّامية وفراغها: الله، الحقيقة. يمكن أن تقود العدمية إلى اليأس وإلى الشّعور بالعبثية وإلى الوقاحة أو إلى شكل من الفوضوية الفكرية...» يُنظر؛ جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا؛ تياراتها، مذاهبها أعلامها، وقضاياها، ترجمة إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2009 ، ص 513

[28]- جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا، ص 513

[29]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 34

[30]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 6

[31]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص 36

[32]- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ص56

1- فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير. الإسكندرية ، 1938

2- عيسى النّاعوري، أدباء من الشّرق والغرب، منشورات عويدات بيروت الطبعة الثّانية 1977

3- بيار هيبرسوفرين، زاردشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، مجد، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع. بيروت، الطّبعة الثّانية، 2002

4- فؤاد زكريا، نيتشه، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر، الطّبعة الثّانية. دون تاريخ .

5- بيير مونتيبيلو، نيتشه وإرادة القوّة، ترجمة جمال مفرج،الدّار العربية للعلوم .ناشرون، ومنشورات الاختلاف، الطّبعة الأولى 2010

6- إدوارد سعيد، الاستشراق؛ المفاهيم الغربية للشّرق، ترجمة محمّد عنّاني، دار رؤية للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، 2006

7- بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علّو، بمراجعة جابر عصفور، منشورات المجمع الثّقافي أبو ظبي، الإمارات، الطّبعة الأولى، 1995

8- برندا مارشال، تعليم ما بعد الحداثة ؛المتخيّل والنّظرية، ترجمة وتقديم السّيد إمام، المشروع القومي للتّرجمة، مصر المركز القومي للتّرجمة، الطبعة الأولى 2010

9- جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا؛ تيّارتها، مذاهبها أعلامها، وقضاياها، ترجمة إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الطّبعة الأولى، 2009

10-فريدريك غرو، ميشال فوكو، ترجمة محمّد وطفه مجد، المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتوزيع بيروت، الطّبعة الأولى، 2008

11-ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل النّاقد الأدبي؛ إضاءة لأكثر من خمسين تيّارا ومصطلحا نقديا معاصر، المركز الثّقافي العربي، الطّبعة الثّانية، 2000

12-ألف؛ مجلة البلاغَة المقارنة، إدوارد سعيد والتّقويض النقدي للاستعمار؛ عدد خاص عن

[33]- عيسى النّاعوري، أدباء من الشّرق والغرب، ص 84

[34]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص8/7

[35] - يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 7

[36] - يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 9

[37]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص9

[38] - يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 13/12/11/10

[39]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص14

[40]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 15

[41] - يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 14

[42] - يُنظر؛ فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 18

[43]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 32

[44]- فريديريك نيتشه، هكذا تكلّم زاردشت، ترجمة فليكس فارس، ص 51

[45]- فؤاد زكريا، نيتشه،، مقدمة الطبعة الثانية، ص9

[46]- عيسى النّاعوري، أدباء من الشّرق والغرب، ص79

[47]- فؤاد زكريا، نيتشه، مقدمة الطّبعة الأولى، ص11

مصادر البحث ومراجعه

أولا: باللّغة بالعربية

إدوارد سعيد ، العدد الخامس والعشرون، دار إلياس العصرية، القاهرة . مصر، 2005

13-روجي غارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوّا ، منشورات عويدات.بيروت، الطبعة الثّانية 1982.

14-إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، ترجمة حسام الدين خضور، التلوين

15-بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علو، بمراجعة جابر عصفور، منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات، الطبعة الأولى، 1995

16-تيري إيجلتون، أوهام ما بعد الحداثة، ترجمة منى سلام، مراجعة سمير سرحان، مطابع المجلس الأعلى للآثار مصر، 2000

17-جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا؛ تيارتها، مذاهبها أعلامها، وقضاياها، ترجمة إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2009

18-راسل جاكوبي، نهاية اليوتوبيا؛ السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت مطابع الوطن، الكويت 2001

19-فريدريك غرو، ميشال فوكو، ترجمة محمد وطفه مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، الطبعة الأولى، 2008

20-كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت؛ من ماكس هور كهايمر إلى أكسل هونيت، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2010

21-عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الثالثة،2010

22-فتحي التريكي، عبد الوهاب المسيري، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، سورية دمشق الطبعة الأولى، 2003

23-مارجريت روز، ما بعد الحداثة ؛ (تحليل نقدي)، ترجمة أحمد الشامي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1994

24-ماكس هور خيمر وثيودور أدورنو، جدل التنوير؛ شذرات فلسفية، ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة ،الطبعة الأولى، 2006

25-محمد جديدي، الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2008

26-محمد الشيخ وياسر الطائري، مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة؛ حوارات منتقاة من الفكر الألماني المعاصر، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، 1996

27-ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي بيروت، الطبعة الثانية، 1987

28-موسوعة كمبريدرج في النقد الأدبي القرن؛ العشرون المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، العدد 919 تحرير :ك. نلوولف، ك. نوريس،ج. أوزبورن، مراجعة وإشراف رضوى عاشور، المشرف العام جابر عصفور، المشروع القومي للترجمة، شارك في الترجمة إسماعيل عبد الغني/ منى عبد الوهاب هاني حلمي / دعاء إمبابي / محمد هشام المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2005

29-هبرماس، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995

ثانيا: باللّغات الأجنبية

René Guénon , la crise du monde moderne, Gallimard .1946 -1